في ذكرى أديب العربية :

يرحمك الله أبا عبيدة !

للأستاذ محمد سليم الرشدان

يا لله ما أعجب ! هذا هو الدهر تنقضي أيامه وتنطوي لياليه، فيجتاز بذلك حولاً من العمر، يطل من ورائه أبو عبيدة، أديب العربية الأكبر، العلامة الجليل محمد أسعاف النشاشيبي. فإذا هو ذكرى في ثنايا التاريخ، وإذا هو حنين تنبض به القلوب، ثم إذا هو طيف تجتليه الخواطر، وتتفقده النواظر.

ويح هذه الآمال البديدة، لطالما زينت له عزوف السبيل، وهونت عليه وعر المسالك. فعبر كؤودها، واعرورى متونها، ومضى قدماً لا تقعده المخاطر، ولا تكبح جماحه الأرزاء. فكلما أدرك غاية، برزت له من ورائها غايات.

بل ويح هذا الطموح ما زال به يستحث خطوه الجامح، فهو لا يستقر إلى مآل، وهو ما يفتأ يشد الرحال ولكنه أخيراً مضى بعد أن خاض شتى المجاهل في دنيا (العربية)، وتجاوز في ارتيادها بعيد الآفاق. فلم تفته منها صغيرة، ولم تقف بين يديه كبيرة. فقد ألم بمداه وسبر أغوار تلاد، وأحاط من ذلك كله بما لم يحط به إلا قليل، فكان شأنه في هذا السبيل، شأن المجاهد المستبسل، لا تقعده جراحات الغدر، ولا ترده أحابيل العدو الخاتل. فخاض غمرة الكفاح، ولا أيد ولا وزر، إلا ما اشتمل عليه من مضاء العزيمة، فأدرك النصر الباهر في كل ميدان، ومضى في قافلة العمر تزامله العزة والأنفة والإباء، لا يضير هذه القافلة أن تعترض سبيلها (الثعالب) حيناً، ثم لا تلبث أن تحول أو تزول.

أرأيت — يا أخي القارئ — بركاناً يتضرم أواراً، ويتسعر لهيباً، ويغلي في جوفه شواظ وحمم، فهو إذا ما فار ومار زفر زفرة أسكت بها من حوله كل باغم ؟ كذلك عهدت النشاشيبي المتقد حيال أعداء العربية، وأجراء ذوي الأغراض. وما لك لا تستيقن ذلك حين تسمعه يردد ساخطاً :

« وأن نجم ذئب فصاح. (إن لكل عصر لغة، وإن لطبيعة العصر سلطاناً على القول، فكيف تنادينا إلى لغة يقول العصر — إن استمعها — ليست هذه بلغتي ! فنحن نشنأ ما تنادينا إليه، ولا نحب أن نقتل أنفسنا منكبين على القول القديم العتيق، الذي شرب الدهر عليه وأكل، ولا نهوى إلا لغتنا المصرية السهلة الواضحة، التي يفهمها كل إنسان حتى راعي البقر ...) أن نجم لنا مثل ذلك الذئب وعوى عواءه،

الفاكهة وقد حرمتها منذ زمان وأنا أرى دكان الفاكهي في غدوي ورواحي فيجذبني إليه في شدة وعنف ولكني لا أجد الجرأة على أن أقف ببابه أساومه. ثم دفعني شيطاني إليه — بعد حين — فاشتريت ربع أقة عنب دفعت ثمنها ستة مليمات. ولكن حرارة القيظ تركت العنب يلتهب كأنما أوقد عليه بنار جهنم، ثم دفعني شيطاني مرة أخرى فاشتريت ثلجاً بمليم واحد. وهكذا أنفقت في واحدة كل ما أملك : سبعة مليمات ادخرتها في أيام وأيام.

وتسللت إلى حجرتنا في حذر وأنا أوقن بأنها خاوية، وأن أصحابي جميعاً في الأزهر ولن يحضروا إلا بعد ساعة ؛ ودلفت إليها على مهل، ثم وضعت أمامي العنب وسويت عليه الثلج، وطفقت أنظر إليه في شوق وأنا أله في شغف، وأتناول الحبة إثر الحبة، أتذوقها في لذة وسعادة وطمأنينة.

وعلى حين فجأة انفتح الباب ودخل الشيخ عليّ، واعتراني الارتباك والخجل، ونظر هو إلى الطبق أمامي وقد ملأته الدهشة وسيطر عليه العجب واندفع يلومني : « عنب وثلج ! عنب وثلج ! هذه هي متعة الحياة ولذتها ! » ثم انصرف وعلى وجهه سمات الغيظ والحرمان في وقت معاً.

وعجبت أنا لحديث الشيخ، ثم انطويت على نفسي أحدثها : « ما أتفه متع الحياة ولذائذها إن كانت تشترى بسبعة مليمات ! »

ثم انطوت الأيام لتعلمني أن متع الحياة ولذائذها غالية غالية تكلف المرء الدم والعمر والمال جميعاً ...

كامل محمود حبيب

ألقمناه حجراً وحجرين، وعصوناه ثم قلنا له: أجل أيها الدجل الحاوت إن لكل دهر لغة، وإن لطبيعة العصر سلطاناً... غير أن (لغتك المصرية) هذه لغة معتلة، فنحن ندعوك إلى مداواتها وتقويتها بتلاوة القول القديم، لكيلا تُسَلّ أو يدود لحمها ثم تموت ...».

بمثل هذا القول كان يصمت أولئك الذين طالما دعوا — من حوله — إلى نبذ لغة (القرآن)، والاستعاضة عنها برطانة غوغاء السوقة، وترك ما أفنى أئمة العربية شباة أقلامهم وشباب أعمارهم، بجمعه واستنباطه من قواعدها وأصولها، واستبداله بما خيلته طبيعتهم الأعجمية، من كلام مهلهل سقيم... يا للكفر الصراح، ويا للمتوق الآثم! لم لا يعد هذه (الثلة كالثلة [1])؟ ولم لا يعد من كان في مثل هؤلاء (ذئباً أفاكاً)! بل هل عهدتك — لو كنت حيث كان — إلا مفترساً بمثل قوله:

«كلا! إن هذا الزنيم قد جهل وجار عن الحق، واحتقد على لغة العرب فكدح في محقها (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ...)». لكأني بك تقول ذلك (أو من مثله) ما دمت تتعصب لهذا الإرث الجليل الخالد، الذي لو كان حصاد عام، بل لو كان حصاد جيل لتأسى فاقدوه. ولكنه — يا فتى — حصاد المئين من السنين! فأنى لك العزاء (آنذاك)؟ والخطب — لو حصل — جليل، والمصاب — لا كان — مفزع مهول! فما لأبي عبيدة لا يفزع؟ بل ماله لا يستنفر الإنس والجن والسموات والأرض والجبال. فيخرج من (صومعته) هائجاً، وهو يردد متسائلاً:

«وكيف يسول الخبث والعجز والجهل ولؤم الضريبة، كيف يسول كل ذلك للفتى أن يأتي بالكفر براحاً وبالشر صراحاً، ولا يحسب لكفره بالحقيقة حساباً، ولا يخشى لشرارته عذاباً، ولا يخاف عقباها؟ وكيف يهون له احتقاب كل موبقة. أن يؤتى إلى اللغة العربية ... فيجز شعرها، ويخدش ذلك الخد الأسيل ... ويخمش ذلك الوجه الجميل ويفحم! وتصبح (ابنة عوف) مضرب المثل في القبح، وهي المثل المضروب في الحسن والجمال!! ...».

أرأيت كيف كان أبو عبيدة (طيب الله ثراه) يتعصب للعربية وأهلها. فلا تأخذه في سبيلها لومة لائم، ولا يبالي أن يخاصم القريب والبعيد مادام قد انحرف عن الجادة، وجانب الصراط السوي. وإذا كان المرء يناضل في ميدان واحد لا يعدوه، فقد كان هو يناضل (في آن واحد) في ميادين شتى. ومن ذلك أن يتصدى (موجهاً أو مجيباً أو معترضاً أو متحدياً) في أقطار مختلفة، وفي صحف متعددة، وقد تنكر خلال ذلك في أزياء، وادرع لكل ميدان بلبوس. فهو «أزهري المنصورة» حيناً، وهو «السهمي» حيناً آخر. ثم هو إن بالغ في التواضع (والتواضع خلة لا نعدوه) أرسل ما يكتبه غفلاً من أية سمة، فيشاركه صاحب المجلة نكتته، معرفاً كلامه الذي ينم عليه بقوله: «لأستاذ جليل» أو بما هو من على شاكلة هذا التعريف. ثم هو جريء لا يهاب. إذا تعرض لأمر تخشى عواقبه، نحى حجارة التواضع جانباً، وتبدى للخصوم باسمه وكنيته، شأن البطل المقدام لا يبالي أن يرمقه الخصم استهانة بخطره، وغلواً في الحفاظ والنجدة. فليرحمك الله أبا عبيدة، لقد كنت أمة في رجل، وكنت رجلاً (نسيج وحده).

ليتك تعلم — يا قارئي الكريم — مبلغ اعتزاز ذلك الأديب الفذ بكتاب الله! لطالما أجابني على كثير مما كنت أسأله عنه بآيات بينات منه. وهو يردف متفخراً: «أرأيت أي كنز يحوي بين دفتيه هذا الكتاب؟ أو رأيت شبيهاً له فيما عبر بك من لغات (آشور وسريان وعبران)؟ هيهات! ولئن تحريت فما أنت بواجد! (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)».

كان رحمه الله كثيراً ما ينظر إلى هذا الكتاب العظيم نظرة المشفق المحب ولسان حاله يستعيد قوله فيه: «يا أيها الكتاب المعجز، لقد هلك من يدرك فصاحتك، ويكتنه بلاغتك، ويقدرك قدرك، ويعطيك من خدمتك حقك. لقد هلك من كنت تتلو عليهم آياتك فيخشعون، ويخرون سجداً وبكياً. وهل يعرف بلاغتك المرنة اللينة، إلا عربي قح صليب، لم تشن ملكته العربية من العجمة شائنة، ولم تؤذ أذنه كلمة قلقة واهنة!! فسحقاً لمثل هذا سحقاً، وتعساً ونكساً وترباً وجندلاً

(١) الثلة الأولى: الجماعة من الناس. والثلة (الثانية) القطيع من الغنم. وهما من كلام النشاشيبي.

لن يبغي أن يضل ، فسنحب الأمة المرذولة ، على لغتك البارعة العذبة المضرية ... » .

وإن أنس يوماً قدمت فيه إليه ، فأقبل على يحدثني بقلبه ولسانه من دنيا العروبة والإسلام . وينطلق شأن المؤمن المتفائل ، يؤكد لي اندحار هذه العجمة في يوم (قرب أوانه) ، وانطلاق لغة الضاد من عقالها لتنهض بأعباء الإنسانية ، وتؤدي رسالة الحضارة . وما فتئ يكرر بين حين وحين : (ولم لا يكون ذلك واللغة هي اللغة ، والآباء هم الآباء ، والابن مهما كان جاحداً عقوقاً فلا بد أن تجتذبه أصالة المحتد وكرم النجار ...) ويحين موعد انصراف فأستثيره في فقرات من قوله أعرضها نمطاً من أسلوبه وأنا أتحدث عنه في طليعة الأدباء أثناء بحثي عن (الأدب في فلسطين) في المجلة الحبيبة إلى قلبه (الرسالة الزاهرة) ، فلا يكون منه إلا أن يتناول كتاباً يضع سبابته على سطر فيه وهو يقول : (أكتب من هنا ، ولن تنطقني بقول تنتزعه من سويداء نفسي ، وتستخلصه من قرارة يقيني إلا أن يكون هذا !!) . ثم أجدني أقرأ (هناك) كلاماً لا يختلف عما كنت أسمعه منذ هنيهة إلا بألفاظه ، وجعلت أعجب حين رأيتني حيال كلام قاله عام (١٩٢٧) جاء فيه :

« اللغة هي الأمة ، والأمة هي اللغة . وضعف الأولى ضعف الثانية ، وهلاك الثانية هلاك الأولى ... واللغة ميراث أورثه الآباء والأبناء ، وأحزم الوارث صائن ما ورث ، وأسفههم في الدنيا مضيع . وإنا أمم اللسان الضادي لعرب ، وإن لغتنا هي العربية ، وهي الإرث الذي ورثناه . وإنا لحقيقون — والآباء هم الآباء ، واللغة هي اللغة — بأن نقي عربية الجنس ، وعربية اللغة.

ولو كان المورثون صغاراً ، ولو كان الميراث حقيراً لوجب علينا إكبارهم وإعظامه ، فكيف والتاريخ يقول : إن الآباء كانوا كراماً ، وإن الآباء كانوا عظاماً ... والزمان يقول : إن العربية خير ما صنعت يداي . (وإن الدهر لصنع) ، وأنها لخير طرفة أطرفتها الناس ، والزمان بالخير وإن جاد شحيح . فالعربية الصنع العبقري للدهر ، والعربية الدرة اليتيمة ، أو كنز الزمان ، ضن به ثم سخا ... » .

يا أخي القارئ : هذه عبرة ناطقة ، أذرفها بين يديك و ذكرى هذا النابغة العبقري فإن أنت عرفته من آثاره ولم تره ، فليس الخبر كالخبر ! وإن كان خبره جديداً عليك (وما أخاله يكون) ، فاعلم أننا في فقده حيال مجاهد كان سيفه القلم ، وميدانه القراطيس ، وجلاده عنيف قاصم ، لا هوادة فيه مع أخصامه ، (وأخصامه أخصام العربية) :

ولطالما حاز النصر باهراً ، والظفر مؤزراً . فرفع من شأن هذه اللغة الكريمة ، ما أعلى منارها وصول من عبيرها حتى حببها إلى قلب القلوب . وفي سبيلها لم يجاوز ميداناً إلا صال فيه ولا خصماً إلا ثبت في وجهه ثبات (أحد) و (أبي قبيس)

وأخيراً ، أثخنته جراحات الدهر ، فسكن الفؤاد النابض بحب العربية وأهلها ، وصمت اللسان الذليق ، وما كان ليصمت لولا أن أصمته الدهر ...

فن رحمة الله أبا عبيدة .

محمد سليم الرشدان
ماجستير في الآداب واللغات السامية

صدر حديثاً :

خمر وجمر

للشاعر الناقد الأستاذ عدنان أسعد

يطلب من دار المعارف ومن جميع المكتبات الشهيرة بمصر والبلاد العربية

وثمنه ٢٥ قرشاً